



المدخل الإسلامى للطب

للأستاذ الدكتور :

إبراهيم عبد الحميد الصياد

عرض وتحليل : أ.د. أحمد فؤاد باشا

سعتها وامتدادها سوف يجد أن الممارسات الفعلية تؤكد عكس ذلك فى كثير من الأحيان . فالكتاب الاشتراكيون نراهم متحمسين للكشوف العلمية والتقنية التى تظهر فى ظل أيديولوجية اشتراكية ، وكانت نظرية النسبية لأينشتين تُهاجم على أنها نظرية « مثالية » وفى الصين يصل اصطبغ العلم بالصبغة الأيديولوجية إلى حد أن العقيدة الماوية تحكم فى شروط اختيار المشتغلين بالعلم ، وفى ظروف عمل العلماء . وفى أمريكا يصل الحرص على تأكيد الدور الأمريكى الرائد إلى درجة

يردد الناس مقولة شائعة مؤداها أن العلم لا وطن له ولا جنس ولا عقيدة ، ذلك لأن الحقائق العلمية عالمية بطبيعتها ، ويمكن التوصل إليها فى أى زمان ومكان إذا ما توافرت الظروف والأساليب التى أدت إلى اكتشافها والتحقق من وجودها . ومن ثم لا يمكن أن نتصور مثلاً وجود فيزياء أمريكية أو رأسمالية وفيزياء روسية أو شيوعية ، أو نعتقد مثلاً فى أن هذا القانون العلمى أو ذلك يمكن أن يكون إسلامياً أو مسيحياً أو يهودياً أو زنديقاً إلخادياً . لكن الباحث الناقد لساحة الفكر العالمى على

(٥) المدخل الإسلامى للطب ، د. إبراهيم عبد الحميد الصياد ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٧ م

لائسى معها غرس العلم الأمريكى فى تربة القمر عندما هبطت على سطحه لأول مرة مركبات سفينة « أبوللو » الفضائية (راجع : د. فؤاد زكريا ، التفكير العلمى ، ط ٣ ، ص ٣٢٣ وما بعدها ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٨) .

وإذا ما تأملنا واقع الفكر الحديث والمعاصر فإننا نجد العديد من القوميات والأيدىولوجيات التى تحاول عن طريق العلم أن تثبت قدرتها على تقديم رؤية شاملة للواقع الإنسانى ، وتسعى جاهدة إلى استبعاد أى إدراك يخالف إدراكها الخاص ، مؤكدة ميزتها بالاستناد إلى العلم فى بناء نسق فكرى متكامل ، يبدو وكأنه نتاج منطقى للمعرفة البشرية . لكن هذه الأيدىولوجيات فى حقيقتها لا تخلو أبداً من معتقدات يغلب عليها روح العتصب ، وتكتفها نزعة الذاتية والمصالح الخاصة ، ويكفى شاهداً على ذلك ما نراه من تصارع بين أيدىولوجيات ومذاهب فلسفية عديدة تسلفت على قوانين وآراء دارون واحتمالية هيزنبرج ونسبية أينشتين وغيرها .

ولم يسلم التصور الإنسانى لحقيقة العلم من صراع الأيدىولوجيات فى حلبة الفكر ، فلا يزال البحث فى نظرية المعرفة يدور حول نشأتها وتعريفها وتحديد موضوعها وغايتها ومناهج البحث فيها . ولو نظرنا إلى وضع الإنسان اليوم لما استطعنا أن نزعم - رغم ما أحرزه من تقدم هائل فى مجال العلوم وتقنياتها - أن حياته أكثر معقولة من ذى قبل ، أو أن العقل والواقع قد تصالحا . لقد زاد قلقه وتخوفه من كل ما

يجرى حوله فى الحاضر ، وكل ما يحمله إليه المستقبل تحت شعار « سباق الحضارات » . وأصبحت بعض المجتمعات تعيش حالة من الحيرة والعجز والتخلف ، فقدت معها هويتها ، وانشغلت إماً بالجرى وراء المذاهب الفلسفية المختلفة للمفاضلة بينها ، أو بالعودة إلى التراث إثارةً للسلامة ، أو بمحاولة التوفيق بين هذا وذاك . أليس كل هذا ، أو شيء قريب منه ، هو ما يجرى حالياً فى ساحة الفكر العربى والإسلامى المليئة بفلول الأيدىولوجيات الوافدة !؟

إذا كان هناك من يرى الصراع الأيدىولوجى سوف يخلّى مكانه مستقبلاً للتقدم العلمى والنفسى ، مستشهداً بما يحدث فى العالم الآن من تقارب بين أكثر الأيدىولوجيات تعارضاً ، فإننا نرى أن إسلامية المعرفة هى فقط المؤهلة لتحقيق مستقبل أفضل للإنسانية ، تراعى فيه مصلحة الإنسان فى كل زمان ومكان ، بغض النظر عن فوارق اللون والجنس والموطن والعقيدة . ذلك لأن المنهج الإسلامى هو وحده المؤهل لأن يكون موضع تأمل عميق فى عقلية إنسان العصر ، وتهيئته لاستيعاب كل ما تأتى به حضارة العلم والتقنية فى المستقبل القريب أو البعيد ، ولا شك أن هذا التصحيح الإسلامى لواقع الفكر المعاصر سيكون له أجل الأثر فى تصحيح وجهة العلوم لدى عقلاء العالم ومفكره ، إذا ما درسوا الإسلام فى حقائقه واستفادوا منه فى إصلاح شئون حضارتهم . وعندئذ

وفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر دلّنا على أهمية الموضوع ومكانة الكاتب . ويقع الكتاب في ٢٤٧ صفحة من القطع المتوسط .

وإذا انتقلنا إلى عرض محتويات الكتاب فإن المؤلف قد أوضح الخطة التي سار عليها في تمهيد موجز يستند إلى ما تعارفت عليه معاهد التعليم الطبي من اتخاذ الكتاب الطبي والمريض ركيزتين لدراسة الطب . فكتاب الطب هو المرجع إلى فهم تكوين الجسم ووظائفه وما يصيبه من مرض ، وكيف يمكن إعادته إلى حالته الطبيعية . أما المريض فهو مادة الدراسة وموضوع الفحص والعلاج الذي تطبق عليه ما في الكتب من نظريات . لذلك تناول المؤلف في الباب الأول الأسس الإسلامية التي تقوم عليها دراسة الطب حتى يدرك الطالب المسلم غايته من هذه الدراسة ، ويكون على هدى من أمره في تناولها . وفي الباب الثاني تناول المريض من حيث هو إنسان ، فلا بد للطبيب أن يعرف مادة دراسته وما له من حقوق حتى يلتزم بها في تعامله مع أفضل مخلوقات الله على الأرض . وفي الباب الثالث تناول هذا الإنسان بعد أن ألم به المرض ، واستعرض نظرة المريض لنفسه ونظرة الناس له وما يجب أن يكون عليه موقف الطبيب منه . وفي الباب الرابع والأخير حاول المؤلف أن يتبين موقع الرعاية الصحية من النظرة الإسلامية الشاملة للكون والحياة ، وأوضح كيف ترتبط مفاهيم الوقاية والعلاج برسالة الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض ،

سيكون التفكير العلمي لدى البشر قد استعاد طبيعته الحقّة بوصفه بحثاً موضوعياً نزيهاً في مختلف فروع المعرفة عن الحقيقة ، يعلو على كل ضروب الهوى والتحيز ، ويزن كل شيء بميزان واحد ، سبق له أن أنقذ امبراطوريات كبرى متهافنة من الفناء ، هو ميزان الإسلام بكل ميزاته وخصائصه التي قامت عليها قواعده الاعتقادية والعملية .

لقد أردنا من هذه المقدمة إيضاح ما نتصوره إطاراً فكرياً عاماً لحاجة المجتمع الإسلامي إلى « إسلامية المعرفة » باعتبارها أحد جوانب « الإسلامية » بمفهومها الشامل كإطار للحياة الإنسانية والحضارة والإعمار البشري ، وكمنهج إلهي لإنقاذ هذا العالم الممزق المتناحر المهتد بالدمار ، وكبرنامج إصلاح متكامل يجب كل شعارات وضعية عن « التحديث » و « المعاصرة » و « التحضير » ، ويحدد الوجهة دون لبس أو تضليل . ونحن نرى أن أى إسهام علمي في هذا المجال يمثل خطوة جديدة على طريق التطبيق الإسلامي للفكر العصري المستنير (راجع مؤلفنا : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية ، القاهرة ١٩٨٤ ، وأيضاً : إسلامية المعرفة ، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، ١٩٨٦) .

من هنا جاءت أهمية اختيارنا لكتاب « المدخل الإسلامى للطب » للدكتور إبراهيم عبد الحميد الصياد ، والذي صدر عن مجمع البحوث الإسلامية عام ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ، وحظى بمقدمتين لفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

والصحة من مقومات العبادة ، وأداة القيام بواجبات الخلافة . وهذا المفهوم ينقل موضوع الصحة من دائرة ضيقة تشمل الطبيب والمريض إلى النظرة الشمولية الواسعة للطب الإسلامى التى تربط العقيدة بالشرعية بالنشاط الإنسانى بصحة الفرد والبيئة والمحافظة عليها وإصلاحها .

ينقسم الباب الأول إلى أربعة مباحث خصصها المؤلف لعرض أربعة مداخل ينطلق منها الإنسان المسلم فى دراسته للطب تطبيقاً لنظرة الإسلام إلى كافة الأنشطة فى الحياة . أما المبحث الأول فيتناول أهمية الطب باعتباره علماً نافعا يهدف إلى صحة العقل والبدن التى تعين على توفير كافة المقاصد الرئيسية للشرعية كما يراها الفقهاء ، وهى بترتيب أهميتها : الدين والنفس والعقل والنسل والمال . وعندما يطلب المسلم علماً على النهج الإسلامى يكون فهمه للحياة والكون طريقاً للوصول إلى الله سبحانه وتعالى : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار » (سورة آل عمران : ١٩١) . وتكون وجهته دائماً لعمل الخير انطلاقاً من القاعدة العامة فى ضرورة الربط بين النظرية والتطبيق : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » (سورة الصف : ٢ ، ٣) . ويدلل المؤلف على أن قيمة العلم النافع تتسع فى أبعاد كثيرة ، فهى تتعدى حدود العمر ، حيث أن ثواب العلم النافع يصير صدقة جارية بعد وفاة صاحبه ، وهى تتعدى حدود المصدر

حيث أن منهل العلم النافع مباح من أى مصدر ، كما أنها تتعدى حدود الفضل حيث ترتفع درجة طالب العلم النافع ليحى به الإسلام حتى يقترب من درجات الأنبياء .

ويعرض المبحث الثانى من هذا الباب لدراسة الطب باعتبارها فرض كفاية يحقق مصلحة الجماعة ويرفع راية الدين . والمكلف فى فرض الكفاية هو المجتمع كشخصية اعتبارية ، فالجميع مؤهل لأداء وظيفته ، كل حسب قدرته وطاقته ، وكل ميسر لما خلق له . والبناء الاجتماعى للأمة يستوجب اختلاف القدرات والمواهب بين الناس ، فيقوم التخصص فى المجتمع بما يؤدى إلى التعاون لتلبية احتياجات المجموع وأداء الفروض الكفائية . وبذلك يجتاز المجتمع تجربة الابتلاء بنجاح . وكل علم يحتاجه المسلمون فرض كفاية ، فإن لم يوجد بينهم من يحسنه فالكل آمنون . وليس الكفاية أن يوجد من يعرفه ، بل فى وجود المجموعة التى تغطى احتياجات الأمة . ويفند المؤلف خطأ الظن بأن الاشتغال بالعلوم التقنية هو من أمور الدنيا فقط وليس من أمور الدين ، موضحاً كيف أدى ذلك الظن إلى إهمال تخصصات هامة تلزم المجتمع المسلم . فبغير أداء المصالح الدنيوية يضعف شأن المسلمين ولا تستقيم أمور الدين ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . لذلك فإن كل أصول الصناعات والعلوم التطبيقية النافعة من فروض الكفاية ، والحقوق الكفائية تخدم بعضها البعض ، إذ هى سلسلة من الاحتياجات

وهى العلوم المتعلقة بالعقيدة والقيم
والتصور العام للوجود والنفس الإنسانية
ونظام المجتمع .

ثانياً : التفسير الإسلامى للحياة
البشرية والغاية منها لا يقتصر على حياة
الإنسان فى الدنيا وإنما يتناول دورة وجوده
الكاملة التى لا يمكن للبشر إدراكها إلا
بهدى من الوحي الكريم : « وكنتم أمواتا
فأحياكم ثم يميتكم ثم يحكمكم ثم إليه
ترجعون » (سورة البقرة : ٢٨) .

ثالثاً : الأخطاء البشرية فى تناول مناهج
المعرفة أدت إلى الشرك بالله أو إلى عصيان
أوامره . فقد كان من نتيجة خلط الناس
لمصادر المعرفة أن حاولوا اقتحام عالم الغيب
بالوسائل التى لا تصلح إلا لعالم الشهادة ،
ودنسوا الفطرة الحنيفة المؤمنة الموحدة لله .

وظهرت العلمانية فى العالم الغربى لتضع
حداً فاصلاً بين العلم والدين ، وتختصر
اللاهوت الكنسى فى جانب محدود من
العلاقة بين الفرد وربّه . وكان من نتائج
هذا الفصل أن فقدت العلوم أساسها
الأخلاقي ، وظهرت النظريات والمذاهب
الوضعية لتكون منهجاً وديناً للمجتمعات
التي تعتنقها . وانتقلت عدوى هذه
النظريات إلى الفكر الإسلامى فى عهود
الاستعمار للدول الإسلامية ، وخلت
الكتب الطبية من أية إشارة إلى حكمة الله
فى جسم الإنسان ، وتجاهلت القوة الخالقة
التي تسير وظائفها بهذه الدقة البالغة ،
ونسبتها إلى مسميات خيالية كالطبيعة
والقوة الذاتية والغريزة وغيرها مما لا يتفق
مع التصور الإسلامى . كذلك تخلف

والضرورات تخدم كل واحدة منها
الأخرى ، كما تخدم العلوم الأساسية العلوم
التطبيقية . فالتخصصات العلمية المختلفة
ضرورية لكل مجتمع ، والإخلال بأحدها
يؤدى إلى الإخلال بالواجب الكفائى
الأعظم وهو عبادة الله حق عبادته وإعلاء
كلمته فى الأرض وانطلاقاً من مفهوم
الكفاية يبرز المؤلف جزئية هامة تتعلق
بحسن تنظيم العمل الإسلامى ، فلا يجوز أن
يتجه كل الدارسين إلى تخصصات معينة
طمعاً فى ربح مادى أوفر ، أو مركز
اجتماعى أفضل ، أو ممارسة فعلية أقل
مشقة ، بل يجب أن يكون مفهوم الكفاية
هو تجسيد للروح الجماعية والبذل فى سبيل
الله . فإذا أقبل عليها المسلم بهذه النية فإنه
فى دراسته وممارسته يكون عابداً لله حق
عبادته .

فى المبحث الثالث انتقل المؤلف إلى
موضوع دراسة الطب كمدخل إلى قوة
الإيمان بالله ، وناقش هذه القضية من
خلال تناوله خمسة جوانب هامة هى :

أولاً : مصادرها المعرفة من وجهة
النظر الإسلامية تقوم على أساس زوجية
الوجود الممثلة فى عالم الغيب الذى لا يعلمه
إلا الله تعالى وعالم الشهادة الذى نشهده
أمامنا بما فيه من كائنات . ويتبع هذا أن
تصنف العلوم إلى قسمين : يشمل أولهما
العلوم البحتة والتطبيقية التى تقوم على
المشاهدة والتجربة والتعليل ، مثل علوم
الكيمياء والفيزياء والطب والزراعة وغيرها ،
ويشمل القسم الثانى العلوم التى لا يمكن
للمسلم إلا أن يتلقاها من مصدر ربانى ،

المسلمون بسبب تخلفهم عن النظر في عالم الشهادة بالمنهج التجريبي الذي كان للإسلام الفضل في ظهوره ، وبذلك توقف تقدم العلوم التطبيقية ووقفوا منه موقف المتفرج .

ويرتب المؤلف على هذه النتيجة ظهور اتجاهات صوفية صرفت المسلمين عن الدنيا وسلبت منهم مقومات القوة . وينسب المؤلف بصورة قاطعة - لنا عليها بعض التحفظ - مظاهر ضعف المسلمين وانسحابهم من مجابهة المشاكل العملية في مجال الحياة ومجال العلم إلى تأثير التصوف الذى جعلهم يعتمدون على ما ينتجه غيرهم من غذاء البدن والعقل (راجع : قضية التصوف المنقذ من الضلال ، د. عبد الحلیم محمود ، ط ٢ دار المعارف ١٩٨٥ ، خاصة الفصل الرابع) .

رابعا : تأثير التقدم العلمى على المفاهيم البشرية .

خامسا : الغاية الإيمانية من دراسة الطب والعلوم الطبيعية . وفى هذين الجانبين يعود المؤلف إلى تكرار الكثير من الأفكار التى سبق له أن عرضها ، ولكننا لا نرى فى ذلك عيبا كبيرا طالما أنه يساعد على تعميق المفاهيم الإيمانية والتصورات الإسلامية .

أما المبحث الرابع من هذا الباب فيخصصه المؤلف للدعوة إلى أن يكون التعليم الطبى المستمر صفة لازمة للطبيب المسلم حتى يقدم للناس أفضل رعاية طبية ممكنة ويكون على صلة بكل جديد فى مجال

تخصصة : « وقل رب زدنى علما » (سورة طه : ١١٤) . وقد سأل البيرونى من حوله عن مسألة علمية وهو فى فرش الموت ، فقالوا : مالك وهذا وأنت فيما أنت فيه ، فقال : لأن ألقى الله وأنا أعرفها خير من ألقاه وأنا أجهلها .

وانتقل المؤلف فى الباب الثانى إلى تناول نظرة الطبيب المسلم للحياة البشرية من عدة جوانب عاجلها فى سبعة مباحث هى :

١ - حماية حق الحياة البشرية باعتبارها هبة من الله تعالى ، تكسب قدسيتها من النفخة الإلهية الكريمة ، وبذلك صارت حقا مقدسا لا يجوز لأحد أن يسلبه إلا بحق الله ، ويتساوى فى ذلك كل البشر فى جميع مراحل حياتهم مهما كان جنسهم ولونهم ودينهم . وهنا يوضح المؤلف كيف يمتد المفهوم الإسلامى للحياة البشرية إلى الجنين داخل الرحم ، فيجعل له كيانا مستقلا وحقوقا مستقلة عن حقوق والدته رغم أنه مازال جزءا منها ، فإذا اعتدى أحد على امرأة حامل فأجهضها فإنه يكون قد ارتكب جريمة قتل جريمتين : جريمة الاعتداء عليها وجريمة قتل الجنين . ومن مظاهر احترام حق الحياة فى الإسلام تفضيل صيانة الحياة على كافة الاعتبارات الشرعية . ولا يشترط أن يصل الضرر إلى حد الخطر حتى يكون مبررا للتخفيف ، بل إن المشقة تستوجب التيسير تطبيقا لقوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (الحج : ٧٨) .

٢ - حماية مقومات الحياة البشرية ومنها تلك الحقوق التى تنعكس على

الصحة البدنية والنفسية ، مثل حق العلاج واللباس والطعام والسكن والزواج والتعليم والعمل ، وأيضاً حق الكفالة في أحوال المرض والعجز والشيخوخة وفقد العائل ، ولكن منها أسانيده في السنة النبوية الشريفة .

٣ - توفير الكرامة البشرية التي منحها الله تعالى للإنسان بقوله : « ولقد كرمنا بني آدم » (الإسراء : ٧٠) . فقد حرّم الإسلام الإيذاء البدني أو النفس بغير وجه حق . بل إن الإسلام يكفل كرامة الجسد حتى بعد خروج الحياة منه ، بل وفي ذكره أيضاً . وقد يستدعي العمل الطبي تشريح الجثة لأغراض الطب الشرعي ، أو لدراسة الصفة التشريحية للمرض المؤدى للوفاة ، والأعضاء التي تقطع من الجسد في عملية التشريح يجب أن تعامل بالطريقة التي حددها الشرع في معاملة الجسد الكامل ، بحيث تدفن ولا تلقى كأنها فضلات غير آدمية . وإذا تداول طالب الطب عظام الميت أو أجزاء من جسده بقصد الدراسة النافعة فلا بد أن يحفظ لها كرامتها . عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحي في الإثم » (الموطأ ، أبو داود ، ابن ماجه : الجنائز ، أحمد : ٥٨/٦) . وإذا كان العمل الطبي يضع الإنسان وسط أعداد لا تنتهي من المرضى والموتى فيجب ألا ينسيه ذلك احترام الموت ومرعاة حرمة الموتى ، ولا يؤدي تكرار مشاهدة الموتى إلى التعود ، بل إلى العبرة والعظة . روى الخمسة إلا الترمذي عن

جابر رضي الله عنه : « مرت جنازة فقام لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله إنها يهودية فقال : إن الموت فزع فإذا رأيتم الجنازة فقوموا ، في رواية قال : « أليست نفسا » .

٤ - الضوابط الشرعية المتعلقة بالحياة في أمور الانتحار والاعتداء والقصاص تلزم العبد بآلا يفرض في هذه الحياة ، وليس لغيره أن يعتدى عليها أو يعرضها للخطر بفعل إجباري أو إهمال سلبى . فإذا مات شخص في الزحام فالدية على جميع من حضر أو على بيت المال ، وإذا مات إنسان جوعاً في بلد مسلم فيؤدى أهل البلد جميعاً الدية متضامنون إلى أهل البيت والعاملون في الحقل الطبي مسئولون عن أرواح الناس ، وقد يهلك المريض من إلقاء بعضهم المسئولية على البعض الآخر ، ولو استشعر كل واحد منهم أن كثرة العدد لا تخلى من المسئولية لتعامل كل منهم مع المريض كما لو كان هو وحده مسئولاً عن حياته .

وكرامة الإنسان لا تسمح للعاملين في البحث الطبي أن يجعلوه في موقع حيوانات التجارب إذا كان في ذلك أدنى خطر عليه ، فليس لهم حق تعريضه للأذى المحتمل وليس له أن يقبل التصرف في نفسه . وعندما يعرض المؤلف لقضية هامة تتعلق بأصحاب الحقوق في الجسم البشري فإنه يدل على أن سلامة الجسد من الحقوق المشتركة للعبد والله تعالى ، وليس للفرد أن يتصرف في جسده أو يأذن لغيره بالاعتداء على نفسه . وكنا نود من المؤلف في هذا

الشأن أن يدلى بدلوه فيما يتعلق ببعض القضايا المعاصرة التي يختلف حولها الفقهاء مثل نقل الأعضاء ومشروعية بيعها أو التبرع بها . وإن كان سيتطرق إليها بإيجاز بعد ذلك .

٥ - عناصر المساواة والتفضيل بين البشر ، وانعكاس ذلك على موقف العباد بعضهم من بعض ، يجعل البناء الأخلاقي والاجتماعي في التصور الإسلامي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالعقيدة ، بمعنى أن المسلم يعامل غيره من الناس كما أمره الله تعالى على أساس سلوكهم وأفعالهم الاختيارية ، وليس على أساس صفاتهم الجبرية التي لا اختيار لهم فيها مثل : اللون والغنى والقوة والجنس والوطن والعنصر الخ قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) .

٦ - حماية حق الحياة لغير المسلم انطلاقا من القاعدة العامة « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » . ويمتد البر والعدل إلى غير المسلم سواء في ديار الإسلام أو حتى في مجال المعركة بين الحق والباطل . فالرعاية الطبية حق للأسير ، وقد أمر الرسول عليه السلام أتباعه بعد معركة بدر أن يكرموا الأسرى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغذاء .

٧ - صيانة الحياة غير البشرية في الحيوان والطير . وإذا كانت التجارب على الحيوانات عاملا في تقدم الطب والعلاج ، فإن ذلك لا بد أن يتم في حدود الرحمة التي

أقرها الإسلام لكل كائن حي . ويتبنى المؤلف في هذا الباب إلى تحديد التوجيهات الإسلامية التي يستهدى بها الطبيب المسلم في سلوكه المهني ، فلا يقوم بعمل إيجابى من شأنه انتهاك حرمة الحياة ، وتمتد رعايته بالمريض مهما كانت حالته ميئوس من إنقاذها ، فليس هناك في الإسلام ما يسمى القتل بدافع الشفقة على المريض الميئوس من شفائه ، فالروح ملك لله تعالى والحياة هبة من الله ، وليس لأى كائن حق التصرف فيها .

أما الباب الثالث من هذا الكتاب الهام فقد خصصه المؤلف لعرض وجهة نظر الإسلام في المرض والمريض . فأوضح أن الحياة الإنسان سلسلة من التجارب الابتلائية ، سواء ما كان منها مبهجا أو مؤلما ، وأن المرض ابتلاء من الله تعالى ينفذ بقضائه ، مثلما أن تجنب المرض أو الشفاء منه إذا وقع كلاهما من قدر الله تعالى وهنا يشير المؤلف إلى ما رواه البخارى ومسلم عن أنى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديثين الشريفين : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » و « لا يورد ممرض على مصح » . فرغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن اختلاط المريض بالصحيح ، إلا أن ذلك ليس هو السبب الوحيد لحدوث المرض ، وقوله « لا عدوى » ينفى أن يكون مجرد الاختلاط هو سبب المرض ، وإنما يدعونا لتدبر أسباب أخرى للمرض غير مجرد الاختلاط ، وحيث أن طاقة البشر محصورة في الأسباب الدنيوية المنظورة ، فعليهم

اتماس هذه الأسباب للوقاية من المرض أو علاجه .

وعلى المسلم أن يتقبل المرض كأي قضاء خيرا كان أو شرا ، ويصبر عليه فقد يكون تطهيرا له وتكفيرا عن ذنوبه في الدنيا . روى أبو داود عن أم العلاء قال : « عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريضة فقال : أبشري يا أم العلاء ، فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياهم كما تذهب النار خبث الذهب والفضة » . ولا يعنى هذا أن يستسلم المسلم لمرضه ويتقاعس عن علاجه ، بل عليه أن يطرق أسباب العلاج الطبى المتوفر حسب مستوى تقدم الطب في المجتمع ، وإذا تدهورت صحته إلى حد يعتقد فيه أن شفاؤه غير محتمل ، فإن عليه أن يتعلق بالأمل المتواصل ، قال تعالى : « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (يوسف : ٨٧) . وهذا الأمل المتواصل حاجز طبيعى من الانهيار فى أى ظرف من الظروف الدنيوية ، فلا يكون المرض البدنى سببا فى تولد المرض النفسى أو الاضطرابات العضوية النفسية ، بل إن صلاية النفس كثيرا ما تساعد فى شفاء أمراض البدن . والمسلم فى حال المرض مأجور بصبره مغفور له بابتلائه ، وفى حال الشفاء مأجور بشكره على نعمة العافية . وتتجلى هذه المعانى فى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما : « اللهم إقسيم لنا من طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن خشيتك

ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن اليقين ما تهون به مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

وبعد أن يشرح المؤلف خصائص المجتمع المسلم المتحاب المتكافل ، ويبين التصور الإسلامى لموقف الإنسان المسلم من أخيه المريض ، بدءاً بزيارته والاهتمام بأمره وانتهاء بقضاء حاجته ورعاية أسرته ، ينتقل إلى إيضاح موقف الطبيب المسلم من المريض .

وهنا يؤكد المؤلف على الكثير من المبادئ والقيم الإسلامية التى يجب أن يقوم عليها فكر الطبيب المسلم وسلوكه تجاه المريض . فإذا كانت الرحمة صفة من صفات المسلم فإنها للطبيب أولى وأزيم ، وتقديم الرعاية الطبية للمريض أداء الزكاة العلم والحكمة ، فالله تعالى قد رزق الطبيب علما نافعا ومهنته لازمة للمجتمع . ومفهوم الزكاة فى الإسلام أوسع من زكاة المال ، فزكاة المهنة أن ينفع بها الناس وكل القدرات والطاقات التى أنعم الله بها على المسلم لا بد وأن تسخر لغايتها ، وهى الخير والبر . لتجسيد هذا المعنى يؤكد النبى عليه السلام أن كل جزء من جسم الإنسان وقدراته عليه كل يوم صدقة يؤديها للناس . روى الشيخان عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى (عظام الأصابع) من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس » . وزكاة العلم النافع

ألا يكتمه المسلم بل ينشره وينفع به .

ومهنة الطب تجعل صاحبها معرضاً لاستدعائه لنجدة المريض في أى وقت ، وإذا كان هذا عبء على راحته ووقته في ظاهر الأمر ، إلا أنه يعتبر فضلاً من الله لأنه يرفع منزلة صاحبه عند ربه . أخرج الطبراني عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عباداً اختصهم لحوائج الناس يفرع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » . ولا يفوت المؤلف أن يوضح في هذا المجال أن رعاية الطبيب المسلم لمريض غير مسلم تسهم في تقديم صورة طيبة للإسلام ، ورعايته للمريض المسلم تعينه على استعادة قوته وعافيته . فالسلامة البدنية ضرورية للعبادة واستيفاء مقاصد الشريعة ، والطبيب بعلاجه للمريض المسلم يساعده على العبادة وعمل الخير ، وبذلك يكون له أجر الخير الذى يفعله المريض بعد شفائه دون أن ينقص ذلك من أجر المريض شيئاً .

ويختتم المؤلف هذا الباب مؤكداً على أن إدراك الطبيب لمغزى عمله وكنه رسالته السامية يجعل هدفه في تخفيف آلام المريض أسمى من الرغبة في الأجر والجزاء الدنيوى ، ويكون دائم الصلة بالله تعالى يسأله التوفيق في عمله . فذلك يقيه من لذة الشعور بالمهارة في المهنة عند نجاحه في عمله لأن ذلك يجبط العمل وينقص الأجر . وعلى الطبيب المسلم أن يكون على دراية بحقيقة موقفه في العملية العلاجية ، متمثلة في أنه أداة الرحمة الإلهية والوسيلة

التي يخفف الله بها آلام الناس . فعندما قال أبو رمثة للنبي صلى الله عليه وسلم : دعنى أعالج ما يظهر كفاًنى طبيب ، قال له عليه الصلاة والسلام : « أنت رفيق والله طبيب » (أخرجه أحمد في المسند) .

أما الباب الرابع والأخير فيعتبر أهم أبواب هذا الكتاب القيم ، وقد خصص له المؤلف مساحة كبيرة بلغت مائة صفحة ، أى قرابة نصف الحجم الفعلى لمحتويات الكتاب . ولهذا لجأ إلى تقديمه وتقسيمه كما لو كان كتيباً مستقلاً ، وجعل عنوانه « الطب في التصوف الإسلامى » ، وذكر في بدايته الأساس الفكرى الذى اعتمد عليه ، فأوضح أن الإسلام يضع تصوراً عاماً للحياة والكون ، ينبثق من العقيدة ويهتدى بهداها ، وفي ضوء هذا التصور يقدم منهجاً متميزاً للاقتصاد الإسلامى ، والطب الإسلامى ، وكافة أنشطة الحياة ، ومن العسير على الثقافات الغربية والشرقية أن تربط كل عمل يمارسه الناس بالدين ، أما المسلمون فيؤمنون بالتوافق التام بين عقيدة الإسلام وتحقيق سعادة المجتمع ، لذا فهم يحرصون على ربط العقيدة بكل نشاط إنسانى . فالإسلام عند المسلم عقيدة روحية ، ومذهبية اجتماعية ، أى أنها شرعة ومنهاج يسلكه في أمور دينه ودنياه ، وعلى هذا الأساس شرع المؤلف في استعراض خصائص التصور الإسلامى قبل أن يوضح انعكاسات هذا التصور على النظرية الطبية في الإسلام . وجعل ذلك في قسمين كبيرين ينقسم كل منهما بدوره إلى عدة موضوعات ومباحث أو مستويات .

أما القسم الأول وعنوانه « شرعة الإسلام » فيعرض بالتفصيل لما تتميز به المثالية الإسلامية من أنها تفسر للإنسان دوره في الكون ، والغاية من وجوده ، ووسائل الوجود لهذه الغاية لذلك نسميها « شرعة » لتمييزها عن المناهج والنظريات الوضعية . يقول تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (المائدة : ٤٨) . ويتناول المؤلف شرح المبادئ التي تقوم عليها شرعة الإسلام ، متمثلة في توحيد الخالق ، ووحدة الأمة والاستخلاف في الأرض . ثم يركز الضوء على الاستخلاف في الأرض من حيث تعريفه ومقوماته وضوابطه ومتطلباته ، مؤكداً على أن وسائل تحقيق الخلافة تتمثل في العلم النافع والتطبيق العملي لهذا العلم في استنباط خيرات الأرض وعمارتها وحيازة عناصر القوة . ويرى المؤلف أن عناصر الاستخلاف تقوم على ثلاثة عناصر هي :—

- ١ - إعمار الأرض وإقامة الحضارة .
- ٢ - حماية هذه الحضارة من الإفساد .
- ٣ - إصلاح أى فساد قد يطرأ عليها .

وقد أفرد المؤلف لكل عنصر مبحثاً خاصاً ، وخلص من مناقشة هذه العناصر الثلاثة إلى صياغة نظرية إسلامية في الطب تتطابق مع هذا الإطار العام ، وتتألف من ثلاثة مستويات هي :—

- ١ - بناء الجسم وتحسين الصحة .
- ٢ - حماية الصحة أو الحفاظ عليها ، وهو ما يعرف بالطب الوقائي .

٣ - إصلاح البدن من الأمراض ، وهو ما يعرف بالطب العلاجي والتأهيل .

وفي القسم الثاني ناقش المؤلف هذه المستويات الثلاثة التي تؤلف إطاراً عاماً لما أسماه بالنظرية الطبية الإسلامية ، واستشهد بالعديد من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبين بوضوح كيف يركز منهج الطب الإسلامي على ضرورة التداوى مع تجنب المحرمات في العلاج والاهتمام بالقواعد الشرعية التي تحض على اجتلاب المصالح ودرء المفسدة واجتناب المضار . فإذا كانت إزالة الضرر يعقبها أثر يخلفه ، أجريت الموازنة بين الضررين لاختيار أخفهما . وإذا كانت هذه القواعد الكلية الفقهية من اختصاص علماء أصول الفقه ، إلا أن الطبيب يلزمه إلمام بما يحتاج إليه من هذه الأحكام الشرعية في ممارسة مهنته ، حتى تتحقق معالم الطب الإسلامي بخصاصه المميزة من نظرة شمولية ، وعدل في الحكم وإحسان في العمل . وقد أوضح المؤلف التوجهات الشرعية للإجراءات الطبية على النحو التالي :—

أولاً : قواعد المصلحة :

الأصل في المنافع الإباحة : وهذه القاعدة تجعل كل ما فيه نفع للناس مباحاً ما لم يرد فيه نص بتحريمه ، أو يكون قياساً على محرم . وينطبق ذلك على وسائل العلاج .

٢ - الأصل في المضار التحريم : وهذه القاعدة تحرم أى إجراء علاجي يكون

القاعدة توجه الطبيب في الاختيار بين وسيلتين من وسائل العلاج أقلهما ضررا .

٩ - يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام : وهذه القاعدة تطبق في حالة الأمراض الانتقالية ، بحيث تبيح الحجر على حركة مريض إذا كان فيه خطر على الآخرين . ويمكن تطبيقها في الجسد الواحد لاستئصال عضو إذا كان تركه سيضر باقي أجزاء الجسم .

١٠ - درء المفاسد مقدم على جلب المصالح : فما أمكن علاجه بالغذاء لا يعالج بالدواء ، وما يعالج بالدواء لا يعالج بالجراحة ، وما يمكن فيه الجراحة لا يجوز فيه البتر . ومن هذه القاعدة يمكن التوسع في الاستفادة بوسائل العلاج الطبيعي والنباتات الطبيعية إذا كانت أقل ضررا من المواد الكيماوية المصنعة .

ثالثا : قواعد دفع الحرج ومراعاة الضرورة :

١ - المشقة تجلب التيسير : وهذا يعطى كثيرا من الرخص للمريض في حدود طاقته .

٢ - الضروريات تبيح المخطورات : وهذه القاعدة تبيح علاج الرجل للمرأة ، وبالعكس ، وكشف العورة عند الضرورة .

٣ - الحاجة تنزل منزل الضرورة عامة أو خاصة : فيباح نقل عضو من جسم الميت إذا كان ذلك ضروريا لحياة إنسان آخر .

٤ - الضرورات تقدر بقدرها : فلا

الضرر فيه خالصا ، أو هو الغالب الراجح ، ولا عبرة بالنفع الضئيل المؤقت في جانب الضرر الغالب الدائم .

ثانيا : قواعد تجنب الضرر :

١ - « لا ضرر ولا ضرار » (أخرجه مالك وابن ماجة والدارقطني) . والضرر هو حصول الأذى ابتداء ، والضرار حصوله على سبيل رد الفعل .

٢ - الضرر يدفع بقدر الإمكان : وهذا أساس كافة إجراءات الطب الوقائي .

٣ - الضرر يزال : وهذه القاعدة هي أساس العلاج والتأهيل فلا يجوز ترك المرض بلا علاج أو ترك العاهة بلا تأهيل .

٤ - الضرر لا يكون قديما : أى لا يكتسب صورة الأمر الواقع بمرور الزمن ، وهذه القاعدة تجعل حالات العجز والعاهات غير ميئوس منها .

٥ - الضرر لا يزال بمثله : فإذا كانت مضاعفات الإجراء العلاجي تؤدي إلى حالة مساوية للحالة قبل العلاج فلا داعى له .

٦ - الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف : إذا كانت المضاعفات الناتجة عن العلاج أقل خطورة من حالة المريض قبل العلاج ، يكون العمل الطبي مباحا .

٧ - يختار أهون الشرين : فلا يجوز أن تكون أضرار العلاج أكثر خطراً من المرض نفسه وعندئذ فالعلاج لا مبرر له .

٨ - إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمها ضررا بارتكاب أخفهما : وهذه

يجوز التوسع في رخصة إلا في حدود حجم الضرورة فإذا لم تكن العملية الجراحية ضرورية لتحقيق درجة كافية من المصلحة ، وخاصة عمليات التجميل ، فلا ضرورة لها . فما يباح لفئة صغيرة قد لا يباح لرجل مُسِنَّ .

٥ - ما جاز لعذر بطل بزواله : فإذا توافرت الطبية فيفضل أن تعالج هي النساء .

رابعا : قواعد الحقوق :

١ - لا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك الغير بلا إذن : وجسم الإنسان ملك لله تعالى ومع ذلك فيه حق للعبد نفسه . وبذلك لا يجوز التبرع بعضو من جسم إنسان حتى إذا أمكن الحصول عليه من جسد ميت ، ولا يجوز إجراء التجارب على جسد الإنسان إذا كان في ذلك ضرر عليه حتى ولو وافق على ذلك .

٢ - الاضرار لا يبطل حق الغير : وهذه القاعدة تضع قيوداً على الإذن الشرعى . فنقل عضو بشرى إلى مريض بدافع الضرورة لا يجوز أن يتعارض مع حقوق صاحب العضو الأصلي ، سواء كان حياً أو ميتاً .

٣ - الجواز الشرعى ينافى الضمان : فإذا حدث للمريض ضرر بدون تقصير أو تعد من الطبيب المؤهل للعلاج فإن الطبيب لا يكون ضامناً ، أى لا تقع عليه مسئولية جزائية .

وأخيراً يختتم المؤلف هذا الباب والكتاب بدعوة المسلمين إلى العمل الصحى

التطوعى موضحاً أفاقه العديدة مثل التبرع بالدم . ورعاية المعوقين . ورعاية الطفولة والأمومة ، وإسعاف المرضى والمصابين ، وزيارة المرضى ، والإنقاذ في حالات الكوارث ، وإشارات المرور للوقاية من الحوادث ، والإشراف على نظافة البيئة وسلامتها ، وغير ذلك من المجالات . ويشير المؤلف إلى أن تقاعس المسلمين عن الأعمال التطوعية إنما هو نتيجة طبيعية لابتعادهم عن المنهج الصحيح للإسلام ، وعجزهم عن استيعاب تعاليمه ، فالإسلام يحاول أن يرفع المسلمين من مستوى الحب السلبى للجماعة إلى مستوى العمل الإيجابى لصالحها .

وفى ختام عرضنا للكتاب نود أن نشير إلى غفلة المؤلف عن تحديد أو تصحيح مواقع بعض الآيات القرآنية فى المصحف الشريف (انظر صفحتى ١٧ ، ١٠٩) ، وإلى بعض الأخطاء المطبعية (انظر الصفحات ٤٤ ، ٩٣ ، ٢٣٤) ، وإلى أحاديث نبوية كثيرة لم يبين مدى صحتها أو الاتفاق عليها (انظر مثلاً صفحات ١٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٤) . إلا أن هذه الملاحظات ، بالإضافة إلى ما أسلفناه فى ثانيا التحليل ، لا يمكن أن تقلل من جهد الكاتب أو قيمة الكتاب ، الذى يعتبر إضافة هامة للمكتبة العربية الإسلامية فى مجال « إسلامية العلوم » ، فهو كتاب للعام ، والخاص ، يفصل ويوصل الكثير من وصايا الإسلام وتعاليمه التى شرعها للإنسان لتصلح شأنه ، وتحفظ حياته النفسية والجسدية ، وتغملأ

الحياة بالصالح والمودة والرحمة ، وهو
خلق بأن تحتويه صدور الأطباء ، وتشربه
نفوسهم وعقولهم ، ليزدادوا علما برسالة
الإسلام إلى الإنسان .

